الصَّيْد طليعَة الحضَارة

لو أنك سقطت إلى موضع مُوحش لا أنيس به ولا زرع، لكان أوّل همك أن تبحثَ عن الغذاء الذى هو قِوام جسمك وبَقاء نفسك. والصيد هو سبيلك إلى ذلك.. فأنت لا تفكر إلا فيه، كيف تحتال له إن كانت الوسيلة إليه الحيلة، وكيف تقهره لتظفَر به إن كانت الوسيلة إليه القوَّة والغلب، ولن تزال كذلك حتى تبلغُ ما تريد؛ فإذا اطمأننت إلى ما يقوم عليه أودك، وتستمسك به حياتك، فلست تفكر وراء ذلك إلا فيما تستظلّ به وتستكنُّ فيه من خيمة أو بناء، فإذا تمَّ لك ذلك فكرَّت حينئذ فى الغرس والزرع، وبذلك يتراءى أول الطريق إلى الحضارة.

ومن هنا لا يُستعصى عليك أن تُدرك السر فى كون الحضارات العريقة نشأت ونَمت وترعرعت فى أحواض الأنهار، من حيث كان أهلوها أهل زَرع وغرس واستقرار.

وقد فصّل إجمال هذه الكلمات العالم الباحث (ول ديورانت)، فقال[1]:

إن نظام الوجَبات الثلاث فى كل يوم نظام اجتماعى غاية فى الرقى، أما الأقوام الهمجية فهى إما أن تُتخم نفسها دفعة واحدة أو تُمسك عن الطعام.

وإنك لترى أكثر القبائل توحُّشًا بين الهنود الأمريكيين يحكمون على من يدَّخر طعامًا لغده بضَعفِ المِراس وانعدام الذوق، وكذلك ترى أهل أُستراليا

---

(١) انظر «قصة الحضارة».

الأصليين لا يستطيعون العمل مادام جزاؤهم عليه لا يجيئهم فور أدائه.

وكل فرد من قبائل (الهوتنتوت – Hettentot)[١]، هو بمثابة السيِّد الذى يعيش عيش الفراغ، والحياة عند قبيلة (البوشمن – Bushmen)[٢] فى إفريقيا «إما وليمة وإما مجاعة»، وإن قصر النظر هذا لحكمة صامتة، كما هى الحال فى كثير من أساليب الحياة عند «الهمج»، ذلك أن الإنسان إذا ما بدأ يفكر فى غده فقد خرج بذلك من جنة عدن إلى وادى الهموم، وحلت به صفرة الغم، وها هنا يشتد فيه الجشع، وتبدأ الملكية، ويزول عنه البشْر المتهلل الذى يعرفه الإنسان الأول «الخلىّ من كل تفكير»، إن الزنجى الأمريكى يمثل اليوم هذه المرحلة من مراحل الانتقال، وقد سأل (بيرى)[٣] أحد أدلائه من الأسكيمو قائلا: «فيم تفكر؟». فكون جوابه: «ليس لدى ما يدعو إلى التفكير لأن لدى مقدارًا كافيًا من اللحم». فكون الإنسان لا يفكر إلا إذا اضطرّ إلى ذلك، قد يكون جماع الحكمة، وقد يكون لهذا الرأى سند قوى يدعمه.

ومع ذلك فتلك الحياة التى خلت من الهموم، كانت لها صعابها، والأحياء التى استطاعت أن تحتاز تلك المرحلة فى تطورها، استفادت بذلك ميزة كبرى تساعدها فى تنازع البقاء، فالكلب الذى اختزن تحت الثرى عظمة فاضت عن شهيته – وإنها لشهية الكلاب – ، والسنجاب الذى ادخر البندق لوجبة أخرى فى يوم مقبل، والنحل الذى ملأ خليته بالعسل، والنمل الذى خزن

---

(١) شعب يعطن جنوب وجنوب غربى إفريقيا، يسميهون «البوشمن» فى اللغه ولتكوين الغريبى، ضطرهم الهولنديون إلى التراجع فى داخل القاره، وتناقص عددهم كثيرًا بعد ذلك.

(٢) أحد شعوب جنوب افريقيا، يرتبطون من ناحيه الأصل بالأقزم. يسكنون الكهوف ويعيشون على قنص الحيوان الموجوده البرية.

(٣) مكتشف القطب الشمالى

زاده أكداسًا اتقاء يوم مطير – هذه جميعًا كانت أول منشئ للمدنية، فقد كانت هى وأضرابها من المخلوقات الراقية أول من علَّم أجدادنا فن ادِّخار ما نستغنى عنه اليوم إلى الغد، أو اتخاذ الأهبة للشتاء فى أيام الصيف الخصيبة بخيراتها.

فيا لها من مهارة تلك التى استخرج بها أُولئك الأجداد من البر والبحر طعامًا كان بمثابة الأساس لمجتمعاتهم الساذجة. لقد كانوا ينتزعون بأيديهم المجردة انتزاعًا ما يستطيعون أكله مما يُبديه سطح الأرض من أشياء، وكنت تراهم يقلدون أو يستخدمون مخالب الحيوان وأنيابه، ويصنعون لأنفسهم آلات من العاج والعظم والصخر، وينسجون الشباك والمصائد والفخاخ من خيوط الحلفاء والليف، ويصطنعون من الوسائل عددًا لا يحصى لا صطياد فريستهم من يابس أو ماء . لقد كان لأهل بولينزيا[١] شباك طولها ألف ذراع لا يستطيع استخدامها إلا مائة رجل مجتمعين، وبمثل هذا تطوَّرت وسائل ادخار القوت جنبًا إلى جنب مع النظم السياسية، وكان اتحاد الناس فى تحصيلهم للقوت مما أعان على قيام الدولة. انظر إلى السمَّاك من قبيلة (تلنجت – Trlingit) إذ كان يضع على رأسه غطاءً يُشبه رأس عجل البحر، ثم يخفى نفسه بين الصخور ويصرخ بمثل صوت ذلك الضرب من الحيتان، فتأتيه عجول البحر، فيطعنها بسنان رمحه، لا يجد فى ذلك ما يؤنبه عليه ضميره، لأنه يتم على أوضاع يرضاها القتال فى صورته البدائية، وكان من عادة كثير من القبائل أن يُلقى سمَّاكوها مادة مخدرة فى مجرى الماء ليَهون عليهم استجلاب السمك بعد تخديره، فأهل تاهيتى[٢] – مثلا – كانوا يلقون فى الماء سائلاً مسكرًا يصنعونه من صنف معيَّن من البندق أو ضرب معروف

(١) جزر متناثره فى المحيط الهادى منها جزر هاواى وبيوريبده.

(٢) تاهيتى جزيرة فى المحيط الهادى.

لديهم من النبات، فتسكر الأسماك وتطفو على السطح مخمورة لا تحذر الخطر فيُمسك منها السماك ما أراده، والأستراليون الوطنيون يسبحون تحت سطح الماء، ويتنفسون خلال قصبات من الغاب، فيتاح لهم أن يجذبوا البط السابح من سوقه إلى جوف الماء، ويظلون ممسكين به هناك فى رفق حتى تسكن فيه حركة الحياة، وأبناء قبيلة (تاراهيومارا) كانوا يمسكون الطير بأن يلقوا لُباب البندق على أليف قويه ويربطوه بتلك الألياف التى يغرسونها إلى نصفها فى التراب، فيقتات الطير من اللباب، ثم يقتات (التاراهيوماريون) من الطير.

إن الصيد عند كرتنا لعابة اليوم ضرب من اللهو، نستمد فيه اللذة – فيما أظن – من بعض الذكريات الغامضة الراسخة فى دمائنا والتى تعيد لنا تلك الأيام القديمة حيث كان الصيد عند الصائد والمصيد كليهما أمرًا تتعلق به الحياة أو الموت، ذلك لأن الصيد لم يكن سبيلاً إلى طلب القوت وكفى، بل كان كذلك حربًا يُراد بها الطمأنينة والسيادة، حربًا لو قرنتْ إليها كل ما عرفه التاريخ لمدون من حروب، لأُفيت هذه الحروب بالقياس إليها بمثابة اللغط اليسير. ومازال الإنسان فى الغابة يقاتل فى سبيل الحياة، لأنه على الرغم من أن الحيوان هناك لا يكاد يهجمه مختارًا إلا إذا اضطره إلى ذلك الجوع الشديد أو الخوف من الوقوع فريسة لا يجد لنفسه مهربًا يلوذ به، فليس فى الغابة قوت يكفى الجميع، وأحيانًا لا يُظفر بطعمه إلا المقاتل أو الذى يستخدم لنفسه حيوانًا مقاتلاً. وها هى ذى متاحفنا تعرض أمام أبصارنا بقايا تلك الحرب التى نشبت بين الإنسان وسائر الأنواع الحيوانية، إذ تعرض أمامنا المدى والهراوات والرماح والقسىّ وحبال الصيد والأفخاخ والمصائد والسهام والمقاليع التى استطاع بها الإنسان الأول أن يفرض سيادته على الأرض، ويمهد السبيل أمام خَلَفٍ لا يعترف بالجميل، ليحيا حياة امنة من كل

حيوان إلا الإنسان. وحتى يومنا هذا، بعد كل ما نشب من حروب تستبعد العاجز عن الحياة لتبقى على القادر، انظر كم صنوف الكائنات الحية مايزال على وجه الأرض يسعى! لقد يحدث أحيانًا إذا ما مشى الإنسان خلال الغابة متنزهًا، أن تأخذه الدهشة العميقة لكثرة ما يسمع هنالك من لغات، ولكثرة ما يرى من أنواع الحشرات والزواحف وأكلة اللحوم والطير. إن الإنسان ليحسّ عندئذ أنه متطفّل قد أقحم نفسه إقحامًا على هذا المشهد بما فيه من زحمة الأحياء، وأنه مخوف يخشاه الحيوان جميعًا ويمقته الحيوان جميعًا مقتًا لا ينتهي. ومن يدرى فلعلّ يومًا يقبل على الدنيا، فإذا هذه الصنوف من ذوات الأربع فى دمدمة أصواتها، وهذه الحشرات التى كأنما هى اليوم تستدرُّ عليها عطف الإنسان، وهذه الجراثيم الضئيلة التى تنوه بما عساها أن تصنعه، لعل يومًا يُقبل على الدنيا فإذا هذه الصنوف جميعًا تلتهم الإنسان التهامًا بكل ما صنعته يده وأنشأت، فتنقد الكوكب الأرضى من هذا الحيوان ذى الساقين الذى لا يفتأ مجول ناهبًا سالبًا، وهذه الأسلحة العجيبة المصطنعة، وهذه الأقدام التى تجوس فى غير حذر.

لم يكن الصيد والسماكة مرحلتين من مراحل التطور الاقتصادى، بل كانا وجهين من أوجه النشاط التى كتب لها أن تظل باقية فى أعلى صور المجتمع المتحضر. لقد كانا ذات يوم مركز الحياة، وهما الآن بمثابة أساسيّها الخبيئين، إذ يكمن وراء أولئك الصيادين الأسداء كل ما لنا من أدب وفلسفة وفن وشعائر عبادة، فكأنما نؤدّى اليوم صَيدنا بوساطة غيرنا ننيبه عنا، إذ تُعوزنا جرأة القلب التى نقتل بها طرائدنا علنًا فى الفضاء المكشوف، لكن ذكريات الصيد القديم ماتزال تعاودنا حينما نغتبط بمطاردتنا للضعيف أو للذى يلوذ منا بالفرار؛ بل إنها تعاودنا فى ألعاب أطفالنا - حتى الكلمة التى نطلقها اليوم

على اللعب هى نفسها التى تدل على الصيد[١] – وإذن، فآخر ما نصل إليه فى تحليل المدنية هو أنها قائمة على تهيئة الإنسان لطعامه، فإن رأيت فخامة الفن فى الكاتدرائية أو مبنى الكابيتول، وإن شهدت متحفًا للفن أو حفلة موسيقية، وإن صادفت مكتبة أو جامعة، فاعلم أن هذه كلها واجهة البناء التى تخفى وراءها أسلاء القتال.

ولم يكن الإنسان مبتكرًا حين اصطنع الصيد وسيلة لعيشه، ولو حصر الإنسان جهده فى نطاق الصيد لما كان أكثر من حيوان آكل للحُم يضاف إلى قائمة أكلة الحيوان، وإنما بدأت إنسانيتُه حين تطوَّرت حياته من مرحلة الصيد التى يسودها القلق، إلى مرحلة أكثر اطمئنانًا وأوثق اتصالاً واطرادًا، وأعنى بها حياة الرعْى، التى اقتضت ميزات عظيمة الخطر، إذ اقتضت استئناس الحيوان وتربية الماشية واستعمال اللبن، إننا لا نعرف كيف بدأ استئناس الحيوان ولا متى بدأ – فربما كان ذلك حين أبقى الصائدون على صغار الحيوان القتيل فى حلبة الصيد، حين لم يَروا لهاتيك الصغار حولاً ولا قوة، فساقوها إلى مقر سكناهم ليتخذها أطفالهم لعبًا يلهون بها، ولقد لبث الإنسان يأكل الحيوان الذى يمسك به على هذا النحو، ولكن بعد إمهاله فترة من الزمن، وأخذ يستخدمه أداة للنقل، ولكنه مع ذلك كاد أن يسلكه فى مجتمعه الإنسانى كأنما هو منهم، فهو زميل، وهو شريك فى العمل والإقامة، ثم تلا ذلك أن أدرك الإنسان معجزة التناسل بين صنوف حيوانه، فأخضعها لإشرافه، واستطاع بعدئذ من ذكر وأنثى أن يمسك بهما. أن ينشئ لنفسه قطيعًا كاملاً، كذلك خفَّ عن النساء حمل الرضاعة فترة طويلة، بأن استعملن لأطفالهن لبن الحيوان بعد سن معينة، وبهذا قلت نسبة الوفيَّات فى

---

(١) لفظ Game الإنجليزية بمعنى الصيد، وتعنى اللعب أيضًا

الأطفال وظفر الإنسان بمورد جديد مضمون من موارد الطعام، أدى ذلك كله إلى تكاثر الناس وازدادت الحياة ثباتًا واطرادًا، وأصبحت سيادة هذا الكائن المحدث الوجل، أعنى الإنسان، أصبحت سيادته على الأرض أكثر اطمئنانًا.

وكانت المرأة فى أثناء ذلك فى طريقها إلى أكبر كشف اقتصادى بين تلك الكشوف جميعًا، وهو معرفة ما يمكن لتربة الأرض أن تُخرجه من طيبات، فبينما كان الرجل فى صيده كانت هى تنكت الأرض حول الخيمة أو الكوخ لتلتقط كل ما عساها أن تصادفه فوق الأرض من مأكول، ففى أستراليا كان العُرف القائم هو أنه إذا ما غاب الزوج فى رحلات صيده، أخذت الزوجة تحفر الأرض بحثًا عن جذور تؤكل، وتقطف الثمار والبندق من الشجر، وتجمع العسل والفُطر[١] والحب والغلال التى تنبتها الطبيعة، ولا تزال بعض القبائل فى أستراليا حتى يومنا هذا تحصد الغلال التى تنبت بالطبيعة دون أن تحاول درس الحبوب وبَذرها، ولبث هنود وادى نهر ساكرامنتو[٢] عند هذه المرحلة لا يجاوزونها أبدًا. وهكذا لن يُتاح لنا إلى اخر الدهر أن نعلم متى أدرك الإنسان لأول مرة وظيفة الحبوب، بحيث يتحوَّل من جمعها إلى بذرها فى الأرض، فهذه البدايات هى أسرار التاريخ التى سنظل نضرب حولها بمجرد التخمين والحدْس، لكننا يستحيل أن نعلم علم اليقين، فيجوز أنه حين أخذ الإنسان فى جمع الحبوب النابتة بطبيعتها، كانت تسقط منها حبات وهو فى طريقه من مكان النبات إلى حيث يقيم، فنبهته أخيرًا إلى السر العظيم الكامن فى نموِّ النبات، فألقى الناس من قبيلة (جوانج) البذور فى الأرض وتركوها تشقُّ لنفسها طريقها إلى الفضاء، وأما أهالى (بورنيو)[٣]

---

(١) الفطر، بضم الفاء: نبات يؤكل مثل الكمأة وعش الغراب

(٢) نهر فى ولاية كاليفورنيا بأمريكا

(٣) جزيرة كبيرة جنوب شرق اسيا

فكانوا يضعون الحَب فى حفرات يحفرونها بعصا مدبَّبة إذ هم سائرون عبر الحقول، فكانت هذه العصا أو «الحافرة» أبسط ما عرفه الإنسان من أدوات زراعة الأرض، وقد كان الرحَّالة فى (مدغشقر) منذ خمسين عامًا يرون النساء وقد امتشقن هذه العصى المدببة، ووقفن فى صف كأنهن الجنود، ثم تصدر لهن إشارة البدء فيأخذون فى حفر الأرض بعصيِّهن، وقلب التربة ووضع البذور ثم تسوية التربة بأقدامهن من جديد، وبعدئذ يمضين إلى خط آخر من خطوط الحقل. والمرحلة التى تلت ذلك فى تقدُّم الفلاحة وأدواتها مرحلة استُعملت فيها الفأس فى الحرث، وذلك بأن ركَّب الإنسان عظمة فى طرف العصا الحافرة، وربط فيها قطعة أخرى مستعرضة لتكون صالحة لضغطها بالقدم، فلما وصل (كونكوستادورس)[1] إلى المكسيك وجد الأزاتقة لا يعرفون غير الفأس أداة لحرث الأرض حتى إذا ما استؤنس الحيوان وطُوِّعت المعادن أمكن استعمال أدوات أثقل، فكبرت الفأس، فانكشفت بذلك خصوبة الأرض الدفينة بحيث تغيَّرت سيرة الإنسان تغيُّرًا كاملًا، فزرع أنواعًا من النبات كانت تستعصى عليه من قبل، واستنبت أنواعًا أخرى، وأصلح من الأنواع التى كان يزرعها قبل ذلك.

وأخيرًا تعلَّم الإنسان عن الطبيعة فنَّ التحوُّط للمستقبل، وفضيلة التبصُّر فى العواقب، كما تعلَّم فكرة الزمن، فلما لاحظ الإنسان الطيور القَّارة تخزن لبندق فى الشجر، ولاحظ النحل تخزن العسل فى الخلايا، أدرك - وربما جاء إدراكه هذا بعد أُلوف من سنين قضاها فى همجية لا تعرف للحيطة معنى. أدرك فكرة اختزان الطعام للمستقبل، وكشف عن بعض السُّبُل التى تمكنه من حفظ اللحوم بتدخينها وبتمليحها وبتبريدها، وخير من ذلك فى سبيل

---

(١) كونكوستادورس: المحاربون الأسبان الذين غزو المكسيك.

التقدم ما بناه لنفسه من أهراء للغلال تحفظها من المطر والرطوبة والحشرات واللصوص، فكان يحتفظ فى تلك الأهراء بطعام يأكله فى أشهر السنة العجاف، وهكذا تبينَّ على مرّ الأيام أن الزراعة يمكن أن تكون موردًا للقوت أجود نوعًا وأثبت اطرادًا من الصيد، فلما أن تحقق الإنسان من هذا خطا إلى الأمام إحدى الخطوات الثلاث التى نقلته من الحيوانية إلى المدنية، وتلك الخطوات هى الكلام والزراعة والكتابة.

ولا يجوز لك أن تتصور الإنسان قد قفز من الصيد إلى حرث الأرض بوثبة واحدة، فكثير من القبائل - مثل الهنود الأمريكيين - جَمَدوا فى مرحلة الانتقال لا يتحولون عنها، فلبث الصيد مهنة الرجال، والحرث مهنة النساء، لا بل لا يكفى أن تقول عن هذا التحول إنه تمَّ بخطوات متدرجة، إنما ينبغى أن تضيف إلى ذلك أنه لم يكمل حتى تمامه، ولك أن تقول إن الإنسان بحرثه للأرض إنما أضاف طريقة جديدة لاختزان الطعام إلى جانب الطريقة القديمة، ثم ظل طوال عصور التاريخ يغلِب عليه أن يؤثر لنفسه طعام المرحلة الأولى على طعام المرحلة الثانية، ويمكننا أن نصور لأنفسنا الإنسان الأول إذ هو يُجرى التجارب على أُلوف الأصناف التى تخرجها له من جوفها، حتى لقد عانى فى سبيل ذلك ما عانى من ضيق ألَمّ بجوفه، لعله واجِد أى صنف من هاتيك المنتجات يمكن أكله بحيث يكون مأمون العواقب، ثم أخذ يُجرى التجارب تلو التجارب فى مزج هذه الصنوف بالفاكهة والثمر وباللحم والسمك اللذين اعتادهما من قبل، لكنه خلال تلك التجارب كلها لم ينفك مشوقًا لأكل غنائم الصيد، وإنك لترى الشعوب البدائية مُحبة للَّحم فى طعامها إلى حد الافتراس، حتى وإن كان طعامهم الرئيسى فى الواقع هو الغلال والخضر واللبن، فإذا ما صادفهم حيوان ميت لم يطل أمد موته،

فالأرجح أن يهجموا عليه فى نهم فظيع، وكثيرًا ما يستغنون فى ذلك عن عملية الطهى حتى لا يضيعوا من وقتهم شيئًا، فيأكلون فريستهم نيئة، مسرعين فى ذلك ما أسعفتهم أسنانهم القوية فى تمزيقها والتهامها، وسرعان ما تنظر فإذا الباقى أمامهم كومة من عظام، وإنا نسمع عن قبائل بأسرها تمرح فى طعامها أُسبوعًا كاملًا على حوت يلقيه البحر على الشاطئ، وعلى الرغم من معرفة الفُويَجيين للطهى فإنهم يفضلون اللحم نيئًا، وإذا أمسكوا بسمكة قتلوها بعضّها خلف خياشيمها، ثم أكلوها من رأسها إلى ذيلها، لا يقومون إزاءها بشىء من الإعداد إطلاقًا؛ إن الشك فى اطِّراد موارد الطعام جعل هذه الشعوب الفطرية تأكل كل ما يصادفها بمعنى الكلمة الحرفى تقريبًا، يأكلون السمك وقنافد البحر والضفادع البحرية والبرية والفئران كبيرها وصغيرها، والعناكب والديدان والعقارب والعثّة والحشرات والجراد والأساريع والضبّ والثعابين بأنواعها والكلاب والخيل وجذور النبات وبعض الزواحف والطير.. ليس بين هذه الأنواع إلا وكان فى مكان ما لونًا من ألوان الطعام اللذيذ المشتهى عند الأقوام البدائية، وبين القبائل فريق مَهرَ فى صيد النمل، وبينها فريق آخر يجفف الحشرات فى الشمس ويخزنها لتؤكل فى وليمة.

إن قائمة الطعام عند القبائل الدنيا لا تكاد تختلف فى شىء عنها عند القردة العليا، وجاء الكشف عن النار فحدَّد هذا النهم الذى لا يفرِّق بين طعام وطعام، وتعاونت النار والزراعة على تحرير الإنسان من اعتماده على الصيد، فطهى الطعام أذاب للإنسان مادتى (السليلوز) و (النشاء) الموجودتين فى آلاف الأصناف من النبات، وقد أخذ الإنسان يزداد اعتماده على الغلال والخضر ويجعل منها غذاءه الرئيسى، على أن الطهى بتليينه لمواد الطعام

الصلبة، قلل من الحاجة إلى المضغ، فبدأ فساد الأسنان الذى هو من وصمات المدنية.

ثم أضاف الإنسان إلى صنوف الطعام التى أسلفنا ذكرها صنفًا آخر كان ألذها وأشهاها - وهو زميله الإنسان، ذلك أن أكل اللحوم البشرية كان يومًا شائعًا بين الناس جميعًا، فقد وجدناه فى كل القبائل البدائية تقريبًا، كما وجدناه بين الشعوب المتأخرة تاريخًا مثل سكان إيرلندا وإيبريا[1] وجماعة اليكت، بل بين أهل الدانماركة فى القرن الحادى عشر، كان اللحم البشرى من لوازم العيش بين قبائل كثيرة ولم يكن الناس يعرفون الجنائز، بل قد كان الأحياء فى الكنغو الأعلى يباعون ويشترون رجالاً ونساءً وأطفالاً، كانوا يُباعون ويشترون علنًا على اعتبار أنهم من مواد الطعام، وأما فى جزيرة بريطانيا الجديدة فقد كان اللحم البشرى يُباع فى دكاكين كما يبيع القصابون اللحم الحيوانى اليوم، وكذلك فى بعض جزر سليمان كانوا يسمِّنون من بقى فى أيديهم من الضحايا البشرية - وخصوصًا النساء - ليولموا بلحومهم الولائم كأنهم الخنازير، وكان الفويجيون ينزلون النساء منزلة أعلى من الكلاب لأن - الكلاب كان مذاقها رديئًا - كما كانوا يقولون، ولمارَّ (بيرلوق) بجزيرة تاهيتى، أخذ رئيس كهل من رؤساء البولينزيين يشرح له طعامه فقال: «إن مذاق الرجل الأبيض إذا ما أُحسن شواؤه كمذاق الموز الناضج»، أما الفويجيون فلم يعجبهم لحم البيض زاعمين أنه زائد فى ملحه عما ينبغى، وقوى الألياف، فالبحار الأوربى إذا ما وقع لهم كاد فى رأيهم ألا يصلح للطعام، وعندهم أن الرجل من بولينزيا ألذ طعمًا.

فما أصل هذه العادة؟ ليس هنالك ما يثبت قطعًا أنها نشأت - كما ظن

---

(١) شبه جزيرة تضم أسبانيا والبرتغال.

الناس من قبل – بسبب قلة فى أنواع الطعام الأخرى، فقد بقى التلذذ بمذاق اللحم البشرى بعد زوال القحط فى مواد الطعام الأخرى لأن العادة قد تكونت وأصبحت مما يستميل الآكل. وها هى ذى الطبيعة، أرسِلْ فيها البصر ترَ الدم البشرى طعامًا شهيًا لا يقدم عليه اللاعق فى جزع قط، حتى النباتيون البدائيون كانوا سرعان ما يعتادونه بشغف عظيم، ولطالما شرب أهل القبائل دم الإنسان، مع أنهم يكونون فى غير هذا الظرف رقيقى القلوب كرام النفوس – ويشربونه عادة باعتباره دواءً، وطورًا باعتباره شعيرة دينية أو وفاء بعهد، ويشربونه عادة على عقيدة منهم أنه سيضيف إلى شارب القوة الحيوية التى كانت للمأكول، ولم يكن أحد ليشعر بشىء من الخجل فى إيثاره اللحم البشرى، والظاهر أن البدائيين لم يكونوا يفرقون فى حكمهم الأخلاقى بين أكل الإنسان وأكل الحيوان، بل إنه لمدعاة للفخار فى ميلانيزيا أن يدعوَ الرئيس أصدقاءه إلى أكلة يقدِّم فيها إنسان مشوى، وفى ذلك قال رئيس برازيلى فيلسوف: «ما دمت قد قتلت عدوى، فلا شك أنه من الخير أن آكله بدل أن أتركه فيضيع خسارة لا يفيد منها أحد. ليس أسوأ لحالات أن يؤكل الإنسان، لكن أسوأها أن يموت، فإذا ما قُتِلت فسواء لدىّ أأكلنى عدوُّ القبيلة أم تركنى، على أنى لا أجد بين صنوف الصيد جميعًا ما هو ألذ مذاقًا من طعم الإنسان. والحق أنكم أيها البيض قد بلغتم الغاية فى حسن المذاق».

ومما لا ريب فيه أن هذه العادة قد كان لها حسنات اجتماعية معينة، فقد سبقت إلى الوجود الخطة التى اقترحها (سوفت) فى شأن الانتفاع بالأطفال الزائدين عن الحاجة، ثم أفسحت أمام الكهول مجالاً وهو أن يموتوا موتًا فيه نفع للآخرين، أضف إلى ذلك وجهة النظر التى لا ترى فى الجنائز إلا إسرافًا لا تدعو إليه ضرورة، ولقد كان من رأى (مونتينى) أن تعذيب الإنسان حتى

يسلم الروح تحت قنن من الورَع والتقوى - كما كانت الحال فى عصره - أفظع وحشية من طهيه وأكله بعد موته، وأنه لواجب علينا أن يحترم كل منا أوهام الآخر - انتهى كلام ديورانت - .

ولست أراك الا كما رأيت نفسى بعد أن فرغت من قراءة هذا الفصل، كثير التعجب شديد الحيرة من أن يأكل الإنسان أخاه على طريق الحقيقة وليس على طريق المجاز، ولو قد كان الرجل ذكر هذا الذى ذكره عن الإفريقيين أو الآسيويين واستثنى من ذلك قومه، لقلنا عصبية أجناس حملته على أن يرمى بالوحشية زنوجًا أو ملونين، فأما وقد ذكر ذلك الذى يُعيب قومه ويرميهم بالتوحش، كما يعيب الآخرين ويرميهم بالتوحش، فقد دل بذلك على أن الأمر أمر استقراء وتبيان حقائق، وليس أمر استعلاء بعرْق أو جنس، وتحقيرًا لآخرين جرت السُّنَّة بتحقيرهم ورميهم بكل ما يُبعدهم عن منزلة الإنسان ويدنيهم من منزلة الحيوان فى اعتبار بعض المتعالين بالعروق والأجناس.

إن غريزة حب النفس فى الإنسان، أقوى الغرائز سلطانًا عليه، فهى توجِّهه أبدًا إلى ما يصون حياته، بل إلى كل ما يوفرُّ له الكماليات فضلًا عن الضروريات، فإذا أحسَّ المرء أن حياته معرَّضة للخطر، فإنه يفعل كل شىء يستبقى به حياته، كائنًا ما كان من البعد عن كل أمر يُعقل أو يُقبَل، وشاهد ذلك أن الناس فى المجاعات فى كل مكان، كانوا يأكلون بنى أبيهم فرارًا من الموت وحرصًا على الحياة، حتى أولئك الذين بلغوا من الحضارة أرفع المنازل.

وفى بلادنا العريقة فى الحضارة وفى التدين معًا - مصر - بل فى الشرق كله المعروف بالصبر على مقاساة الأهوال والإغراق فى الروحانيات، حدثت

صوَر فاجعة من القحط، اجترأ فيها الناس على مالم يكن يجرى فى أوهامهم لولا شدة البلاء حتى لقد أكل بعضهم بعضًا فى بعض الأحيان وفى بعض الأقطار.

ونورد لك صورًا من هذا البلاء تؤكد أن غريزة حب الحياة تدفع فى كثير من الأحيان إلى أن يأكل الناس بعضهم بعضًا.

ومن أفحش ذلك ما تجده فى كتاب السلوك وفى كتاب «الخطط» وفى كتاب «إغاثة الأمة» للمقريزى من صور لا يحتملها هذا الكتاب، نذكر لك منها على سبيل المثال الغلاء الذى فحش أمره وشنع ذكره وكان أمدُه سبع سنين فى أيام المستنصرِ من خلفاء الفاطميين بمصر، وقد كان سبب هذا الغلاء ضعف السلطنة واختلال أحوال المملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الفتن وقصور النيل وقلة ما يزرع ما شمله الرى؛ وكان ابتداء ذلك فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة، فنزع السعر[1] وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء، حتى تعطلت الأرض من الزراعة وشملَ الخوف، وخيفت السبل فى البر والبحر، وتعذَّر السير إلى الأماكن إلا بالخفارة الكثيرة وركوب الغرر والتعرض للخطر.

وقد انعدم القوت فاستولى الجوع على الناس حتى بيعَ رغيف خبز فى النداء برقاق القناديل من الفسطاط بخمسة عشر دينارًا، وبيع الأردب من القمح بثمانين دينارًا، وأكل الناس الكلاب والقطاط حتى قلَّت الكلاب، فبيع كلب للأكل بخمسة دنانير.

وازدادت الحال سوءًا حتى أكل الناس بعضهم بعضًا، وتحرَّز الناس، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم حبالٌ فيها كلاليب، فإذا مرَّ بهم

(١) نزع: غلا

أحد ألقوها عليه ونشلوه فى أسرع وقت وشرّحوا لحمه وأكلوه.

ثم آل الأمر إلى أن باع المستنصر كل ما فى قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره، فصار يجلس على حصير، وتعطلت دواوينه وذهب وقاره. وكانت نساء القصور تخرج ناشرات شعورهنَّ صائحات: الجوعَ الجوعَ، ثم يسقطن ميتات. ولو باع المستنصر حلية قبور آبائه؛ وذات يوم جاءه الوزير على بغلته فأكلتها العامة فشنق طائفة منهم، فاجتمع عليهم الناس وهم موتى مشنوقين فأكلوهم. وأفضى الأمر إلى أن عَدم المستنصر نفسه القوت، وكانت الشريفة بنت صاحب السبيل تبعث إليه فى كل يوم بقعب من فتيت، من جملة ما كان لها من البر والصدقات فى تلك الغلوة، حتى أنفقت مالها كله فى سبيل البر، وكان يُجَلّ عن الإحصاء.. ولم يكن للمستنصر قوت سوى ما كانت تبعث به إليه، وهو مرة واحدة فى اليوم والليلة.

من الأعاجيب:

ذكر المقريزى من هذه الأعاجيب، أن امرأة من أرباب البيوتات أخذت عقدًا لها قيمته ألف دينار وعرضته على جماعة يعطونها به دقيقًا، فاعتذروا إليها وراح كل منهم يدفعها عن نفسه، ولكن واحدًا منهم أدركته الرحمة بها فباعها بهذا العقد تليس دقيق بمصر القديمة، وكانت المرأة تسكن بالقاهرة، فلما أخذت التليس أعطت بعضه لمن يحميه من النهّاية فى الطريق، فلما وصلت إلى باب زُوَيلة، تسلمته من الحماة له ومشت قليلًا، ولكن الناس تكاثروا عليه وانتهبوه، فأخذت هى أيضًا مع النهابين ملء يديها من الدقيق لم ينبها غيره، ثم عجنته وخبزته، فلما صار قُرصة أخذتها معها، وتوصّلت إلى أخذ أبواب القصر، ثم وقفت على مكان عال رافعة القرصة بحيث يراها

لناس، ثم نادت بأعلى صوتها: «ياأهل القاهرة ادعوا لمولانا المستنصر الذى أسعد الله الناس بأيامه وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقوَّمتُ على هذه القرصة بألف دينار».

فلما اتصل بالمستنصر ذلك الخبر امتعض له وقدح فيه وحرَّك منه، فأحضر الوالى وتهدده وتوعّده مقسمًا له بالله جلت قدرته أنه إن لم يظهر الخبز فى الأسواق وينحل السعر ليضربنَّ عنقه ولينهبنَّ الناس ماله، فخرج الوالى من بين يديه وقد دبَّر حيلة ذكية تبلغ بصاحبها مايريد.

حيلة بارعة:

كان من بين المسجونين قوم استحقوا القتل لجنايات ارتكبوها من قبل، ولم يكن قد نفذ فيهم حكم الإعدام، فلما تهدد المستنصر الوالى على تلك الصورة الحازمة، جمع الوالى عقله إلى دينه، واستخرج من بينها حيلة خليقة بالخلود فيما كتب المؤرخون، وخلاصتها أنه أخرج من الحبس أولئك الذين كانوا قد استحقوا الموت بجناياتهم، ثم أفاض عليهم ثيابًا واسعة، وعمائم مدورَّة، وطيالس سابلة توهم الناس أن هؤلاء من كبار التجار فى مصر والقاهرة، ثم جمع تجار الغلة والخبازين والطحانين وقد عقد لهم مجلسًا عظيمًا، ثم أمر بإحضار واحد من أولئك الذين استحقوا القتل، فدخل على المجلس فى هيئة عظيمة، حتى إذا مثل بين يدى الوالى قال له: ويلك، وما كفاك أنك خنت السلطان واستوليت على مال الديوان، حتى خربت الأعمال ومحقت الغلال، فأدى ذلك إلى اختلال الدولة وهلاك الرعيَّة؟ يا غلام: اضرب عنقه، فضُربت عنقه فى الحال، وترك ملقى فى المجلس بين يدى الوالى، ثم أمر بإحضار آخر من هؤلاء الجناة، وقال له مثل ما قال للأول، ثم أمر بضرب

عنقه فضُربت وترك فى المجلس على حاله، فقام إليه الحاضرون من التجار والطحانين والخبازين قائلين: «أيها الأمير، فى بعض ما جرى كفاية، ونحن نخرج بالغلة وندير الطواحين ونعمر الأسواق بالخبز ونرخص الأسعار على الناس ونبيع الخبز رطلًا بدرهم، ولكنه أبى عليهم ذلك حتى قبلوا أن يبيعوا الرطلين بدرهم، فرضِىَ منهم بذلك بعد التوسُّل والضراعة اليه، ثم وفوا بما اشترط، وتدارك الله الخلق وأجرى النيل وسكنت الفتنة، وزرع الناس، وتلاحق الخير، وانكشفت الشدة وفرجت الكربة. وخبر هذه الغلوات مشهور، وفى هذا القدر كفاية من التعريف، والله يقبض ويبسط وإليه تُرجعون.

منقول غير معقول:

وفى هذا الصدد يذكر بعض المؤرخين أن أكل الناس بعضهم بعضًا فى أيام المجاعات والقحوط، جعلهم يسيغون لحم بنى آدم هنا فى مصر العريقة فى الحضارة والدين، حتى تجاوزوا بذلك أيام الجدب إلى أيام الرخاء، فكانوا يأكلون الأطفال شواء على موائدهم لأنفسهم ولأضيافهم، فكلما عظم مقام الضيف عندهم التمسوا له صبيًا يذبحونه ويشوونه ويقدمونه إليه على موائدهم كما يفعلون بالحِملان[1].

ولسنا قادرين على أن نستسيغ هذا اللون من القصص بالغه ما بلغت الثقة برواتها، فإن ذلك أظهر شناعة وأبيَن قبحًا وأدخل فى باب انتهاك حرمات الله من أكل الخنزير، وشعبنا كان شعبًا مسلمًا متدينًا فى هذه الفترة من الزمان، فإذا حملته الضرورة على أن يأكل بشرًا مثله، فإنه يأكله بحكم هذه الضرورة، فإذا انتهت الضرورة ارتفع الحكم، شأنه فى ذلك شأن أكل

(١) صغار الضأن.

'الميتة والدم ولحم الخنزير وشرب الجرعة من الخمر لإزالة الغصة، خضوعًا لمنطق الضرورة، وقبولًا لرخصة الدين، فأما وقد ارتفعت الضرورات وعمَّ الخصب وأقبل الرخاء، فإن من غير المعقول أن يأكل الناس صغار بنى آدم، لأن الإلف غير قادر - مهما طال به الأمد - على أن يجعل غير السائغ سائغًا، وغير المعقول مقعولًا، ولهذا نرفض هذه الرواية مهما تكن منزلتها فى اعتبار المؤرخين[1].

نعجب مع الجاحظ:

إنك بعد أن مضيت معنا فى هذا البحث إلى هذا المدى، مستطيع أن تتمثل أمرين قد تسيغ أحدهما بقدر ما تلفظُ الآخر. فأما الذى تسيغه، فهو أن يستبقى المرء حياته ولو بأكل إنسان مثله، وأما الذى تلفظه ولا تسيغه، فأن يألف الناس هذه الصورة الكريهة حتى يستصحبوها أيام رخائهم واستفاضة الخير بينهم. وأنت إذا لم تسغ ذلك كما لم نسغه نحن فأنكرته كما أنكرناه، وعجبتَ كما عجبنا لروايته وتدوينه فى الكتب حديثًا وفى الشعر العربى قديمًا، فإننا: لا نحن ولا أنت نقف وحدنا هذا الموقف أو نراه عجيبًا غريبًا فى باب الحياة، ولكننا نقف مع عالم عاقل أديب، هو أبو عثمنخ ثعلع ح الجاحظ حيث ذكر ذلك فى شعر مروى، ثم قرَّر أن هذا الذى ذكره من أكل لحوم البشر إنما هو من أعاجيب الدنيا.

ونروى لك مما ذكره الجاحظ فى هذا الباب، باب أكل الناس بعضهم لُحمان بعض ما قاله معروف الدبيرى:

---

(١) راجع «لإدده ولاعبر» للمؤرخ عبد اللطيف البغدادى.

إذا ما ضفْت يومًا فقعسيا فلا تطعَم لـه أبدًا طعـاما
فـإن اللحم إنسانٌ فـدعه وخيرَ الزاد مامنَع الحراما

وقد هُجيَت هذيل وأسد وبلعنبر وباهلة بأكل لحوم الناس، فقال حسان ابن ثابت يذكر هذيلًا:

إن سرَّك الغدر صرفًا لا مزاج له فأت الرجيع وسل عن دار لحيان
قوم تواصوْا بأكل الجارِ بينهمو فالكلب والشاة والإنسان سيَّان

وقال أحد الشعراء يهجو باهلة بأنها أكلت شخصًا يدعى غفاقًا:

إن غفـاقًا أكلتـه بـاهلة تمشّـوا عظامَـه وكـاهِله
وأصبحتْ أُمُّ غفاق ثاكلة

وقد ذكر الجاحظ فى هذا الباب غير هذا الشعر الذى روَيناه، فراجعْه إن شئت.

لابد من وقفة:

إنك إذا تمثلت صورة الحياة عند الأمة العربية، فإنك بلا ريب تقف حائرًا بين تحمل هذا الكلام على حقيقته، وأن تحمِله على ما يجافى الحقيقة، فإن من غير الميسور أن يُحمل أكل العربى أخاه أو أخته على الحقيقة، وذلك لأن مجال الصيد فسيح، فبدلًا من أن يأكل إنسانًا، يلتمس صيدًا ليأكله، ويقرب هذا الفرض أن الجاحظ روى هذا فى باب الهجاء، فلعله من قبيل أكاذيب الشعر حين يَهجو الشاعر قبيلة من القبائل، فيرميها بهذه العظائم وأمثالها.

ثم إن بعض العرب كان يموت من الجوع ولم نعرف من طريق سوى الشعر - شعر التهاجى - أنهم كانوا يأكل بعضهم بعضًا، لأن لهم عن ذلك مندوحة فى صورة من صورتين:

إحداهما الصيد، وثانيتها التغاور والتناهب، كما يصوِّر ذلك القطامى الشاعر حيث يقول:

ومن ربط الجحاش فإن فينا ... قنا سلبًا وأفراسًا حسانا
وكنَّ إذا أغرن على جناب ... وأعوزهنَّ نهب حيث كانا
أغرن من الضباب على حلول ... وضبة إنه من حان حانا
وأحياناً على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

يقول الشاعر فى هذه الأبيات إننا لسنا أهل حضر نقتنى الجحاش ولكننا أهل بادية وأرباب غزو نقتنى الخيل العِتاق لنغزو عليها، ونصطفى الرماح الطوال لنقاتل بها، فإذا أغرنا على القبائل من حولنا بدَّدنا شملها وأزعجنا أمنها وانتهبنا مالها، فصارت تتقينا وتمعن فى الهرب منا، فإن لم نجد من نغير عليه من الأباعد أغرنا على أقاربنا وأبناء عمومتنا، وعلى النازلين فيهم ومن حولهم، ومن قدر له الهلاك فلا بد أن يدركه، وفى كل من الصورتين الصيد والتغاور والتناهب فناء للعربى عن أن يأكل أُخته أو أخاه، وبهذا النظر نستبعد كما استبعد كثير من أهل العلم أن يكون لحم الإنسان طعامًا للإنسان فى أيام الخصب، فأما فى أيام القحوط والمجاعات، فإن أكل الناس بعضهم بعضًا مأثور يستوى فيه العرب والعجم، والبيض والسود، بغير فرق لأن حب الإنسان للحياة وحرصه على استبقائها يمهِّد بين يديه السُبُل لإساغة لحم الإنسان كما يسيغ لحم الحيوان.